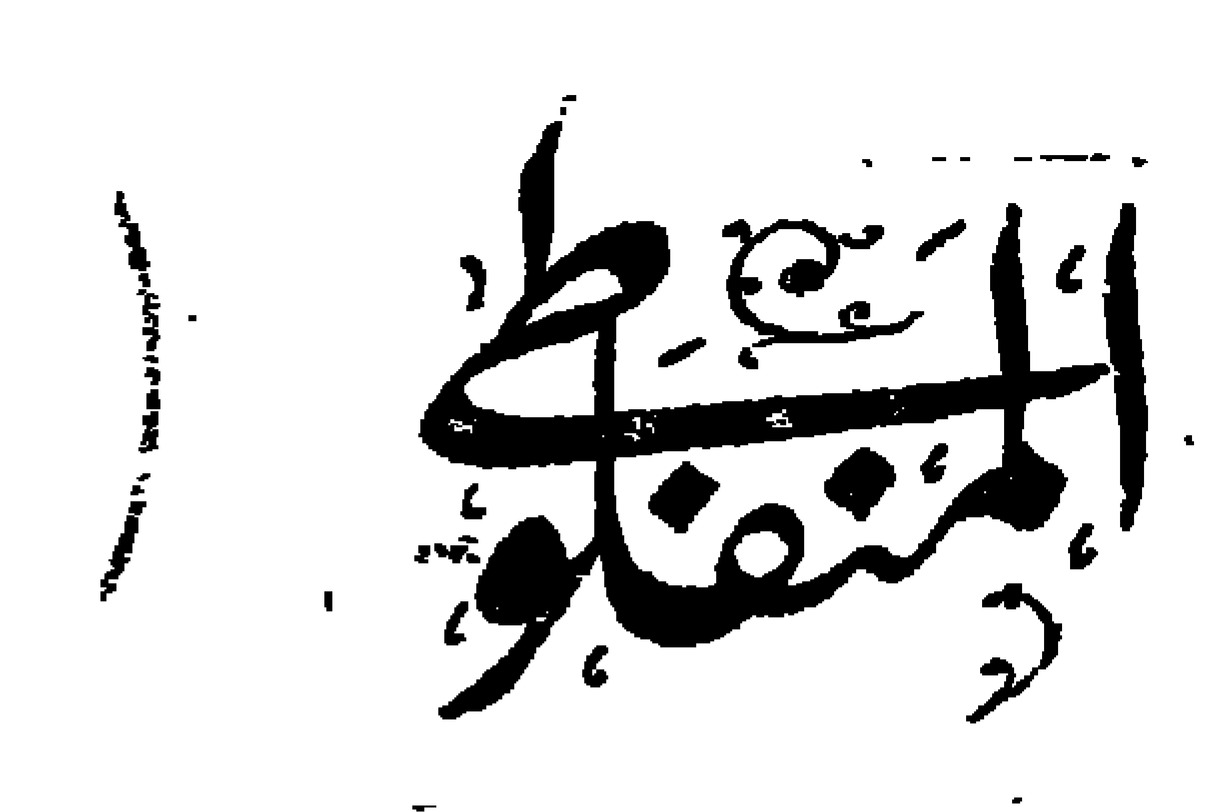


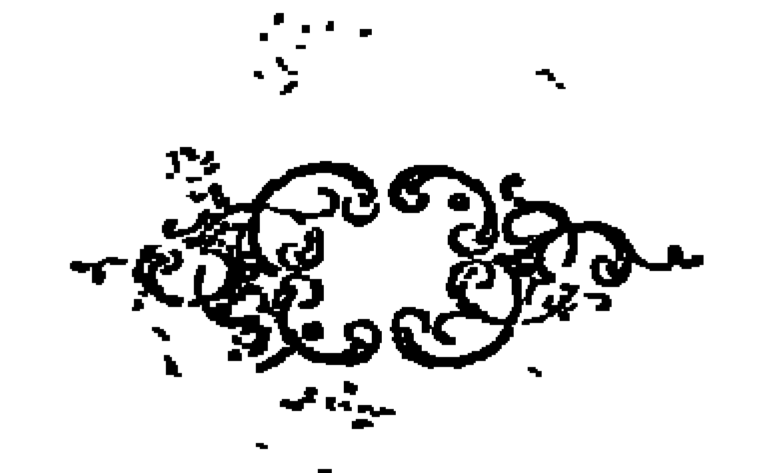
حياته . وطنيته . أدبه ومناقشة ما يأخذه النقاد عليه

محاضرة

ألقاها بدار العلوم العالية

أحمد عبد الحميد السحرتي

الطالب بالمدرسة



١٣٤٨ — ١٩٣٠

مطبعة الطلبة بشارع الخليج بجنينة لاظ



الـكاتب الا سانى المحبوب

السيد مصطفى لطفى المنفلوطى

« الى روح (سعد) فى سماء خلودها ، الى »
« مصر التي رأت فى (مصطفى) ترجمانا صادقا »
« لآلامها وآمالها ، الى كل من عرف (المنفلوطى) »
« فأحب فيه روحه الحساسة ونفسه الشاعرة »
« المتحمسة : أقدم هذا البحث المتواضع تحية »
« لذكراه السامية »

أحمد عبد الحميد السحرتى

ديسمبر ١٩٢٩



أساتذتى . اخوانى :

أحييكم وأشكركم (وبعد) فلقد كان لى مع « الاستاذ المفلوطى » رحمه الله . ساعات طويلة قصيرة كانت هذه الكلمة ثمرتها وخلاصتها وهي من ناحية أخرى جماع الافكار والآراء التي أملتها على قراءته وأوحتها الى دراسته ولا أكذبكم فأدعى لها النضوج جميعاً فهى جهد الطالب وحكمها في الواقع متروك لكم أما أنا فيسرنى على أى حال أن يكون هذا تقريرا للحقيقة التى لمستها حين كنت أتحدث الى حضراتكم عن « جمال الدين الافغانى » في مثل هذا الوقت من العام الماضى وهي أن التاريخ الشرقى — والعربى منه خاصة — حافل بقادة المفكرين والعظماء الخليقين بالعناية والدراسة وليس مجدبا عقيما كما نتوهم أو يصوره لنا بعض أدبائنا فى العصر الحديث : أجل تلك حقيقة نسجلها عليهم ونفوسنا تسيل حسرة واشفاقا وكأنى بالاستاذ الامام رحمه الله قد قرأها فى الشرقيين منذ عشرات السنين فكتب تحت عنوان « الرجل الكبير في الشرق » يقول « قرأت اليوم سطورا بعنوان — رجال الشرق — كتبها كاتبها عند ذكر « لى هنغ تشنغ » رجل الصين العظيم ووازن فيها بين الرجل الكبير فى نفسه يظهر فى بلاد الغرب

ومثله في عقله وهمته يوجد فى أرض الشرق وكيف يشرق النور من عقل الاول فى أفق بلاده فيكون شمسا في الفائدة والشهرة وتظلم الآفاق في عين الثانى فينطمس مافيه من نور ويخمد مايطويه من نار ويموت غير معروف أو مشيعا من اللعنات بالالوف ...» الى آخر هذا المقال . وعلى أى حال فلتكن هذه تحية الشباب لذكرى خمسة أعوام مرت على تلك الروح الخالدة التى ملك صاحبها ببيانه نفوس الشيب والشباب

أما البواعث التى دفعتني على القاء هذه الكلمة فكثيره وقد يكون من أهمها وأقواها :

(١) أن المنفلوطى يتصل اتصالا وثيقا بهـذا النوع من التعليم الذى تقوم عليه حياة متخرجي هذا المعهد وطلابه

(٢) ان المنفلوطى مثل في صباه دورا قامت عليه عظمته ومن حق الشباب أن يعرف هذا الدور لانه يتصل ببيئته وهو فوق هذا صورة نبيلة للتفكير الحر الدائب ومبلغ مايصل بصاحبه

(٣) أن المنفلوطى أحدث فى الادب العربى حدثا جديدا وأكمل فيه نقصا معيبا . ومن حقنا كمتصلين بهذا الفن الجميل أن نعرف الناحية التي عالجها ومبلغ نجاحه فيها

(٤) ان المنفلوطى كان مثلا حيا للانسانية الرحيمة والوطنيه المتحمسة وحرى بكل مصرى أن يحيي فى نفسه هاتين العاطفتين الكريمتين .

والموضوع بعد ذلك يدور حول أربع نقط أساسيه هى :

(١) نشأة المنفلوطى وتكوينه الادبي

(٢) مؤلفاته ومدرسته وكيف أثرت فى الادب

(٣) تقديره ومناقشه ما يأخذه النقاد عليه

(٤) خلقه وناحيته الوطنية

وستتناول ذلك كله بايجاز :

نشأته الاولى :

اذا كانت أواخر القرن التاسع عشر أو سنة ١٨٧٦ على التحديد التاريخي فنحن ببلدة منفلوط من مدن الوجه القبلي حيث المنزل الذى ولد فيه السيد مصطفي يقوم بتلك البقعة الكريمة رائعا جليلا يتناسب وقدر آله الاطهار من الشرف والتقوى اذ كانت أسرة المنفلوطى مشهورة بالعلم والفضل وأكثر أفرادها كانوا قضاة شرعيين ونقباء أشراف بل ان والد المنفلوطى رأسا كان قاضى منفلوط سابقا

واذا أضفنا الى هذا ما يذكره المؤرخون من أن نسب المنفلوطي ينتهى بأحد والديه الى الحسين بن علي بن أبى طالب كرم الله وجهه وبالثانى الى أسرة تركية عريقة في الشرف والنبل وأنصتنا الى آثار البئية والوراثة خلصنا الى النتائج الآتية :

(١) أن الوسط الذى نشأ فيه المنفلوطي كان دينيا بكل ما فى هذه الكلمة من معني اذ القضاء ونقابة الاشراف منصبان علميان عمليان يبعثان على الزهد والتقوى وخوف الرقباء . ولقد أثرت هذه الروح أثرا قويا فى حياة المنفلوطى فبعثته محبا للدين غيورا على تقاليده ترى ذلك في مثل رأى المنفلوطى في « الحجاب والسفور » وفى حبه لأدب الشريف الرضى وخاصة شعره وبكاءه على آل البيت

(٢) كان والدا المنفلوطي من عنصرين قويين (العربي والتركي) فبدا المنفلوطي فى روعة الاتراك وجلال العرب الوقورين وأنت لا تكاد تراه أو تشهد صورته حتى ترى دم النبل يترقرق فى وجهه وطابع الكرم يبدو على محياه .

(٣) ولكنى أصارحكم بانى لم أفهم جيدا كيف انحدر المنفلوطى من هذين العنصرين الخشنين انسانا شاعرا حساسا تلك الصفات التى هي من ظواهر القلوب اللينة الرحيمة . اللهم الا اذا كانت هذه الطبائع البشرية طليقة تأبى أن تتحداها القيود فهي حرة في اختيار الوسط الذى تنمو فيه

ومع كل فقد قضى المنفلوطى صباه بين أهله وذويه حتى اذا ترعرع دخل مكتب جلال الدين السيوطى الذي كان يرأسه الشيخ محمد رضوان — وتاريخه فى هذه النقطة صامت أو قل ان الذين كتبوا في المنفلوطي لم يعنوا بهذا الدور من حياته ولم يحدثونا عما فيه من مثل وطرائف مع أن الغربيين يعنون بمثل هذا جد العناية ويلقنونه أبناءهم ليحتذوه ولو رجعت الى الفرنسيين فى كتبهم الخاصة بالمدارس الابتدائية مثلا لرأيتهم يحدثون اطفالهم عن طفولة « جان جاك روسو j.j Rousseau » وكيف كان رحيما . وعن « تيرجو Turgot » وكيف كان يوفر من مصروفه الخاص ليساعد التلاميذ الفقراء على شراء الكتب المطلوبة منهم . وعن « فرنكلين » (Franklin) محرر أمريكا وكيف كان يشتغل طول يومه عاملا باحدي المطابع ويخصص جزءا من ليله للتعلم والاطلاع على الكتب .

على أي حال فقد ظل المنفلوطي في المكتب الى أن حفظ القرآن الكريم حتي اذا كانت سنة ١٨٨٨ أدخله والده الازهر الشريف كجميع أفراد أسرته فلم يمض عليه فيه بضع سنوات حتى عرف بين أقرانه بالذكاء والفطنة وسلامة الذوق في الفهم وهنا تتجلى شخصية المنفلوطي فتضع اللبنة الاولى في بناء عظمته ويعطينا المثل الحيه للشجاعة الادبية وقوة الارادة ونفاذ العزيمة

دخل المنفلوطي الازهر فداهمته جيوش المتون وكتائب الشراح والمصنفين لغزوها وشهد فيها شهد المعارك تقوم على ساق وقدم بين البصريين والكوفيين من أجل (فاء أو واو) أوقعتها الظروف السيئة بين براثنها ورأى أحد هؤلاء العلماء الاتقياء يتبرع بالغزل البريء يصف به ما اصاب «هل» من تباريح الهوى فيقول «انها اذا لم تر الفعل في حيز ها آنست منه ذاهلة وان رأته في حيزها حنت اليه لسابق الالفه فلم ترض حينئذ الا بمعانقته» ولعله لم يحرم العبقرية الشعريه الماثلة في نحو قولهم !

امتلا الحوض وقال قطني مهلا رويدا قد ملات بطني

هاله هذا الهذر المحتوم وعجب لهذه العقول كيف تنكرت لاصحابها فأوحت اليهم تسطيره وما الذى دفع المؤلف الاول الى وضع هذه الالغاز والاساطير حتى يأتى الآخرون جيلا بعد جيل فيعنا لجونها كل بالشرح والتعليق — وعلم الله ان العربية وغيرها منهم براء — وان جهترهم كانوا كجهلة الاطباء يضعون مثيرات الالم حين يجب أن تكون الملطفات والمسكنات ولعمرك لو أن الله قد رضى عن هؤلاء العلماء كما

يقال لهدام الى معرفة طبائع النفوس وأي الاشياء يصلح لتذائها الغذاء الصالح المفيد .

تقول هال المنفلوطى ذلك كما هاله أن يتوفر عليه الطلاب ويؤخذوا بحفظه بدون قيد أو شرط وأراد نفسه على مسايرتهم فأبت عليه ذلك واكتفي بالقدر الذي يكفل له النجاح ونزع الى الناحية الادبية التى يجد فيها غذاء عقله وروحه

وفى مقدورك أن تتصور مبلغ الشجاعة التي تدرع بها المنفلوطي حين اقدم على ذلك اذا علمت ان سنه اذ ذاك لم تكن قد بلغت الثالثة عشره وأنه كان — كما يقول — « يعيش بين أشياخ أزهريين من الطراز القديم لايرون رأيى ولا يتعلقون بما اتعلق فكانوا يرون ان التوفر عليه (الادب) أو الالمام به عمل من اعمال البطالة والعبث وفتنه من فتن الشيطان فكان الذين يتولون أمرى منهم لا يزالون يحولون بيني وبينه كما يحول الاب بين ولده وبين ما يعرض له من فتن الهوي ونزعات الصبوة ضنا بى كما يزعمون أن انفق ساعة من ساعات دراستي بين لهو الحياة ولعبها فكنت لا أستطيع ان ألم بكتابى الا في الساعة التي آمن فيها على نفسي أن يلموا بأمرى وقليـلا ما كنت اجدها وكثيرا مايهجمون مني على ما يحبون فاذا عثروا فى خزانتى أو تحت وسادتى أو بين لفائف ثوبى على ديوان شاعر أو كتاب أدب خيل اليهم أنهم قد ظفروا بالدينار فى حقيبة السارق أو الزجاجة في جيب الغلام أو العشيق فى خدر الفتاه . فأجد من البلاء بهم والغصص بمكانهم مالا يحتمل مثله مثلى . وهم لايعلمون — أحسن الله اليهم — أنهم وجميع من يدور به جدار

مسجدهم حسنة من حسنات الادب لذى ينقمون منه ماينقمون ويد من أياديه البيضاء على هذا المجتمع البشري »

فالمنفلوطي فى هذه الكلمات يعطينا صورة صادقة عن أيامه الاولى بالازهر وكيف كان هؤلاء الشيوخ القدماء ينكرون عليه خطته ويحولون بينه وبين رغباته ويأبون عليه الا الحواشى والمتون وكأنى بهم هداهم الله لايعرفون أولى قواعد التربية التى يقررها « هربرت سبنسر » اذ يقول « إن الطالب اذا لم يتقبل برغبة واهتمام مايلقي عليه لايجني منه كبير فائدة واذا لم تصادف المعلومات والحقائق مكانا من قلبه وهوى من فؤاده فلا يكون اثرها عظيما فيجب أن تكون المعلومات شائقة جديدة حتى يكون للجديد أثر في إثارة النفس وايقاظها »

أجل لم يكن المنفلوطى أول من عاف هذا التراث العتيق وهاله أن تكره على هضمه عقول لم تبرح المهد بعد. فقبله ترك الاستاذ الامام الازهر أول الامر هاربا الى بلده حتى أجبر العودة اليه. وقد كان من بين الاسباب التى علل بها ذلك قوله " إنى كنت أسمع الشيخ وهو يدرس فأحسبه يتكلم بلغة أجنبيه " هذا الى ما كان عليه بعض الاساتذة من الجهالة والغفلة المصبوغتين بالتقوى والتسليم فلقد بدا مرة للاستاذ الامام خطأ فى كتاب النحو الذي كان يدرسه يوجب التناقض فى بعض مواضيعه فنبه شيخه الى ذلك فاعترف معه به ولكنه قال له « نحن انما ندرس هذا الكتاب تبركا !! والله أعلم »

ولم يقتصر الامر على المنفلوطى والامام بل لقد أتي بعدهما على هذه الشاكلة كثيرون.

ز و ٢ سر ن المنفلوطي احمد عبد الحميد

ويمكننا ان نعتبر هـذه الفترة الدور الاول من حياة المنفلوطي الادبيه جاهد فيه من أجل الفكرة التي تملكته وعمل على أن يقـدم لهـا الغذاء الذى ترضاه منصتا الى ميوله ورغباته دون معين فلم يكن في هذا الدور منتجا بل أخذ يكون نفسه تكوينا شخصيا بحتا -

الدور الثاني : ولكن شاءت القدره الحكيمه التي أضمرت له الرقي والرفعة الا أن تهيئ له الاسباب الى ماتريد فقيضت له الاستاذ الامام رحمه الله . وهنا يبتدئ الدور الثاني من حياته فنرى من ناحية أن أفكار المنفلوطي وآراءه كانت قد ارتقت بفضل ما اطلع عليه من آثار الكتاب والشعراء فكان استعدادة أهلا لان يسمو به الى ماهو أرقى منها ومن ناحية أخر نرى أن الاستاذ الامام — أو ولى عقل المنفلوطي كما يلقبه — يدخل في بيته عاملا قويا فكان من الواضح أن تتأثر به الى حد كبير .

وما ظنكم برجل يقول عنه جمال الدين الافغاني اني « تركت لكم الشيخ محمد عبده وكفاه لمصر عالما » في وسع حضراتكم أن تقدوا ذلك وتتصوروا رجلا كالمرحوم المنفلوطي حباه الله هذه العصارات المختلفه من الشغف والرغبة وقوة الحكم وسلامة الفهم لتتصوروا الثمار التى يمكنه أن يجنيها من صحبة الاستاذ الامام عشر سنوات كاملات كان يلازمه أثناءها في درسه ومنزله ومقدمه ومنصرفه .

في الحق لقد خصته القدرة بأكبر قسط من عنايتها فشاءت أن تكون البذور التي وضعها جمال الدين وتعهدها الاستاذ الامام هبة المنفلوطي تؤتيه أكلها ثمرا جنيا .

ويمكن حضراتكم ـ كمربين ـ أن تضموا الى ذلك : الجهود التي يمكن أن يبذلها الاستاذ الامام ـ باعتباره معلما مخلصا ـ اذا ما رأى فى تلميذه بوادر هذا الذكاء الكامن وتلك الهمة الناشطة الدئوب . لاشك انها كانت جهودا عظيمة موفقه خلقت المنفلوطى خلقا جديدا وبعثته ترجمانا صادقا لمبادئ هذا الشيخ الجليل وتعاليمه . ومن أجل ذلك وجدنا المنفلوطى لا يقوى على البقاء في القاهرة بعد وفاة أستاذه فيهجرها الى بلده بالصعيد . وبذلك ينتهي الدور الثانى من تكوينه . واذا كان من ظواهر تميز هذا الدور عن سابقه فهى أنه كان مهداً للانتاج الاول للمنفلوطى وقد كان لهذا الانتاج الاول كل خصائصه الاقتصادية فكما أن الجماعات الاولية في الازمنة القديمة كانت تنتج بقدر ماتستهلك كذلك كان المنفلوطي ينتج من الغذاء الادبى بقدر ماتستهلكه ميوله دون أن يشرك الناس فيه . وقد تمثل هذا الانتاج أولا فى الشعر وفي الغزل منه خاصة اذ كان المنفلوطى يؤثره على غيره فقال وهو فى نحو السادسة عشرة من عمره قصيدة مطلعها :

أردنا سؤال الدار عمن تحملوا ... فلم ندر من فرط البكا كيف نسأل
وهاج لنا الذكرى معاهد أصبحت ... تعيث صبا فيها وتعبث شمأل

واذا صح ماذكره (الهلال) (١) من أن الاستاذ «سلطان بك محمد» أحد مدرسى هذه المدرسة سابقا سمع هذه القصيدة فأعجبته ورأى المنفلوطى متواضعا حييا فشجعه على نشر أشعاره يكون المنفلوطي قد ارتقى بانتاجه الى درجة أخرى من درجاته الطبيعيه ومن ثم أخذ ينشر

---

(١) فى مقال الاديب طاهر افندى الطناحى

بعض قصائده في جريدة (الفلاح) ومجلتي (الهلال) (والجامعة).
حتى انه استطاع وهو فى الثامنة عشرة من عمره أن ينظم قصيدة تبلغ مائة وخمسين بيتا ندد فيها بالاستعمار وضمنها كتابا جعله بامضاء (عدو الاحتلال) وكان مطلعها:

ألا راية للعدل فى مصر تخفق — لعل مساعي دولة الظلم تخفق
ألا صدمة للجو توقف سيره — فيجبر ذاك الكسر والفتق يرتق

على أي حال فقد استطاع في هذا الدور أن يجذب اليه الانظار وبدأ الناس يعرفون شيئا اسمه المنفلوطي ولكنها معرفة سطحية قريبة الغور كانت تأتى عليها المدة التي قضاها منزويا في بلدة بعيداً عن القاهره وكأن هذه العزلة كانت منبت أفكاره ومربى آرائه ونظرياته حتى اذا تمت مدة التفريخ فتكشفت عن هذه المقالات الممتعة التي عالجها المنفلوطى بجريدة المؤيد سنة ١٩٠٨

الدور الثالث: ومن هنا يبدأ الدور الثالث من حياة المنفلوطى ويأخذ اتجاهه شكله العملى العام متأثراً بنواميس الحياة وما فيها من اختلاف الاهواء والميول وبعبارة أخرى نرى المنفلوطى يزج بأدبه بين الآداب خاضعا معها لقانون (تنازع البقاء) معرضا لما تتعرض له من سهام النقد والتجريح شأن كل شيء يخرج من حوزة الفرد الي ملكية المجموع.

وهنا يمكننا أن نقف وقفة قصيره نستعرض فيها الاسس التي قام عليها أدب المنفلوطي حتى نما وازدهر وما هي وجوه النقدات التي يأخذها عليه الكتاب المعاصرون ومبلغ ما في ذلك كله من صواب أو اسراف

فى الحكم والتقدير

أدب المنفلوطى

أما الاسس التى قام عليها أدب المنفلوطى فنعنى بها العوامل المختلفة التى تظاهرت على اخراجه فى هذه الصورة ويمكننا أن نتصورها ماثلة فى :

(١) بيئته العقلية وكيف استفاد منها

(٢) حالته النفسية والخلقية ودرجة تأثره بهما

(٣) وحى الحالة الاجتماعية ومبلغ نجاحه فى علاجها

البيئة العقلية : نقصد بالبيئة العقلية المعنى المعروف الذي تواضع عليه المربون ولكنا نقصر البحث على ناحية الكتب التى اطلع عليها المنفلوطى وطريقته فى هذا الاطلاع. فأما عن الكتب : فقد وجه المنفلوطى همه الاول الى قراءة الادب العربى وبدأ بالشعر فتناوله فى اكثر من ديوان في مختلف العصور وتأثر منه بالغزل كما يتأثر كل ناشيء يعالج الادب في مثل سنه وأوحى اليه هذا الوسط الموسيقي الفاتن أن يكون وترا من أوتاره فتغنى بالشعر ايضا كما هي الحال الطبعية للنفس البشرية ترى أولا كل شيء هينا ميسورا فى وسعها أن تجيده حتي تلمس الناحية القوية فى استعدادها فتتأثر بما تريد . نعم هكذا كان المنفلوطى أول الامر شاعرا ولكنه هجر الشعر الى النثر فى سن مبكرة ولذلك لن يكون من همنا في تلك الكلمة أن نعالج هذه الناحية لا لانها غير خليقة بالدرس والعناية . فالمنفلوطى شعر سلس رقيق

فتبينون جودته عند سماع ما يتصل منه بالحوادث التى سنذكرها . بل لانه يوسع باب البحث ونحن نؤثر دراسه لناحيةالتى اشتهربها — ولا ننسى أن قصص الف (ليلة وليلة) بما اليها من«سيرة سيف بن ذي يزن » وحروب (عنترة) كان لها ايضا حظ من اوقات صباه

ثم تلا قراءته الدواوين اطلاعه على الكتب الجامعه بين النثر والنظم . وما أكثرها في الادب العرب . فقرأ ماشاء ان يقرأ من خطباء الجاهلية الى كتاب الدولة الاموية والعباسية . ويذكرون أنه كان يقول «بعد السنة الثامنة من الهجرة لا أجد للكتاب شيئا الا ما يجده المعدن من الماس فى الفحم الحجرى » ويروى أحد محرري الهلال أنه قال « ما رأيت مؤلفا يكتب بقلم كابن خلدون في مقدمته » وأنه قرأ الاغانى وكتب بخط يده على نسخة من العقد الفريد « قرأت هذا الكتاب وكتاب زهر الآداب على هامشه فعلي الناشىء ان يبتديء به ويثنى بالاغانى» . واست في الواقع أميل الى هذا الذي يعنى به المترجمون من تأييد وجهة نظر الكاتب أو الشاعر فيما يفضله من الكتب ولا أرى فى هذا التفضيل أكثر من أن يكون لونا من الميل تتأثر به بعض النفوس وقد لا تعيره الاخري التفاتا . ولا أدل على ذلك من أن بعضهم سمع عن كتاب (نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب) وعلم أنهم قالوا (ان من لم يقرأه فليس بأديب) فتناوله مأخوذا بهذه الكلمة يقرأه فما انتهي من تصفحه حتى صير العنوان هكذا (كتاب نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب .قيل أن من يقرأه فليس بأديب) وقد ترون أحدهما مصيبا والآخر مخطئا . على أي حال فنحن لم تعرض لهذا كله الا لنعرف

الطريقة التي عالجها المنفلوطي فى قراءته : والتي هي في الواقع نواة تكوينه . ولقد أشار هو على بعض ذلك في الكلمة التى قدم بها الجزء الاول من نظراته فذكر أنه كان يحب الجمال ويفتتن به فى مختلف صوره ومن شأن هذا الحب أن يرقى الذوق ويشحذ الفكر ويهذب العاطفة تتبين هذا من قوله (كنت أمر بروض البيان فاذا لاحت لى زهرة جميلة بين أزهاره تتألق فى غصن زاهر بين اغصانه وقفت امامها وقفة المعجب بها الحانى عليها المستهتر بحسن تكوينها واشراق منظرها من حيث لا أريد اقتطافها أو ازعاجها من مكانها ثم اتركها حيث هي وقد علقت بنفس صورتها الى أخرى غيرها وهكذا . فترون حضراتكم انه ما كان يحفل بالمنظوم والمنثور يحشو به ذاكرته ليتلمس له المناسبات فى الكتابة فينظمه فيها ولو بعدت الصلة ضنا بهذه المحفوظات أن يأتى عليها النسيان . وتلك في الواقع نقطة جوهرية لها أثرها فلقد كان السائد الى عهد قريب أن يكلف المدرسون تلاميذهم الصغار بحفظ كثير من النصوص الادبية لتعينهم على الكتابة حتى انك اذا ظفرت باحدى كراساتهم فى الانشاء وجدته خليطا مهوشا لا أثر فيه لجهد ما لان التلميذ لم تكلف نفسها كثر من أن تربط هذه المتفرقات (بقال الشاعر وروي احد الحكماء) والتلميذ في الواقع لا عذر له لان حالة العقلية لا تسمح له بالتمييز بين الفائدة المنتظرة وهذه السهولة المتناولة وساعد هؤلاء التلاميذ على المضي فى طريقهم وجود بعض كتب فى الانشاء ألفت بطريقة قديمة لم تراع فيها اصول التربية ونظريات علم النفس . وسهل لهم جهلة المعلمين سبيل الالتجاء اليها على حين ان (الانشاء) مادة عامة تغذيها مختلف المطالعات

فى الكتب والحياه فكأن العاكفين على هذا النوع من التأليف ـ فى شكله القديم ـ كانوا يضرون حيث يتوهمون أنهم ينفعون ولهذا كانت كتب المنفلوطي اجدي على الناشئة من كتبهم التى حشوها بما اعتادوه من شذرات المنظوم والمنثور

فنحن نري اذن ان المنفلوطى ما كان فى أدبه مقلدا ولقد كان الى جانب ذلك ايضا يعتمد اعتمادا فعليا على شعوره وخفقان قلبه فيما يمر به من حسنات القول أو سيئاته فكان (أشعر الشعراء عنده وأكتب الكتاب سواء فى ذلك المتقدم والمتأخر أوصفهم لحالات نفسه أو أثر مشاهد الكون فيها وأقدرهم على تمثيل ذلك وتصويره تصويرا صحيحا وكان يرى أن الكاتب المسخر الذي لا شأن له الا أن يكتب ما يفضى به الناس اليه، صانع غير كاتب ومترجم غير قائل لا فرق بينه وبين صانع الذهب وثاقب اللؤلؤ كلاهما ينظم ما لا يملك ويتصرف فيما لا شأن له فيه) ولا شك أن هناك صلة وثيقة بين هذا وبين أن يبيع الكاتب ضميره لغيره ولذلك كان من أجل المبادىء التي وضعها الزعيم الفقيد فى الصحافة (الا يعرض الكاتب قلمه للايجار وأن يضعه لنفسه حيث يشاء ضميره ويختار)

الادباء واللغويون : وهنا تعرض لنا نقطة أخرى هي أثر من آثار الصراع بين المنفلوطي وشيوخه في بيئته الاولى اذ كانوا يرون أن فى الازهر وكتبه كل العناصر الكافية لتغذية الرغبات . هذا الصراع حمل المنفلوطى على ان يرسم لهؤلاء الفرق بين الادب واللغه ويبين لهم أن شعراء هذا العصر وكتابه الذين يأخذون بزمام المجتمع العربى ويقيمون

عالمه ويقعدونه بقوتهم القلمية فى شئونه السياسية والاجتماعية والادبية أدخله فى باب البيان وأمس به رحما من أولئك الذين يستظهرون متون اللغة ويحيطون بشاذها وغريبها حتى اذا عرض لهم غرض من الاغراض وارادوا انفسهم على الافضاء به أرتج عليهم فاثلغوا . ويقول اخيرا أن الفرق بين الادباء واللغويين أن الاولين كاتبون والآخرين مصححون ولعلنا نلمح في ظلال هذه الاراء فكرة جليلة وهي أخذ مادة اللغة من دراسة الادب العربى وذلك لا شك أجدي وألصق بالثقافة وبالتكوين الشائق المنتج . وليست هذه الفكرة فى الواقع بنت اليوم فلقد قال بها غير واحد من المفكرين من بينهم الاستاذ الفيلسوف الشيخ (طنطاوى جوهري) وهو من خيرة أبناء هذه الدار فلقد جربها وأتى أحد تلاميذه الادباء يحدثنا فى (البلاغ) عن مبلغ شغفهم وتقديرهم لهذه الطريقة لانهم ثقفوها وتذوقوا بها اللغة والادب العربى وليست أفكار هذا الفيلسوف مما يستهان بها فلقد أثبت هذا التلميذ السابق والكاتب الكبير الآن ان الاستاذ طنطاوى توصل الى نظريات في الفلسفة وعلم الحياة لم يصل اليها علماء أوروبا الا بعده بسنوات . أجل ولكنه فى مصر ومثله يبقى فيها منسيا فمن حقنا نحن بدل أن تأخذنا الحسرة مليا وقبل أن نفقد الرجل حيا أن نكرمه فنبعث من آرائه ما كان خافيا مطويا

الاحاديث : — نعود الى صاحبنا فنقول لعل سر حملة المنفلوطى على جماعة اللغويين أن جمهرتهم بين معمم يكتب لنفسه لا للناس وبين جاهل يؤثر اللفظ على المعني أو متكلف تواتيه الالفاظ تارة وأخرى قد لا تواتيه

ولعلك لو رجعت الى مقدمته تراه يوضح لك ذلك فيقول (لقد قرأت ماشئت من منثور العرب ومنظومها فرأيت ان الاحاديث ثلاثة حديث اللسان وحديث العقل وحديث القلب) :

فأما حديث اللسان فهو تلك العبارات المنمقة والجمل المزخرفة أو تلك الكلمات الجامدة الجافة التي لا يعنى صاحبها منها سوى صورتها اللفظية ثم لا يبالى باستقامة المعنى فى ذاته ولا بمقدار ماله من الاثر فى نفس السامع

وأما حديث العقل فهو تلك المعانى التى ينحتها الناحتون من أذهانهم نحتا ويقتطعونها منها اقتطاعا ويذهب فيها مذهب المعاياة والتحدى والتعمق والاغراب ويسمونها تارة تخييلا وأخرى غلوا وثالثة حسن تعليل الى كثير من أمثال هذه الاسماء والالقاب التي تتفرق ما تتفرق ثم يجمعها شيء واحد هو الكذب والاحالة ويضرب لهذا النوع مثلا بمن يقول :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

فيبين لك أوجه الكذب الظاهرة فيها من ان (الجوزاء لاتنطق ولو ان الذى نراه يستدير بها نطاقا فهو شيء متصل بها قبل أن يخلق الممدوح ويخلق اباؤه الاولون الى آدم وحواء . والكواكب ليست أشخاصا أحياء يتخذ منها الناس خدما وخولا لانفسهم. ولو كان كذلك لاستحال عليها ولو كان من سكان السماء أن تهبط الى الارض لتخدم سكانها ويرى ان الشاعر عجز بعد هذا كله عن أن يترك فى نفس السامع صورة تمثل جلال ممدوحه فهو فى الحقيقة انما يريد ببيته هذا أن يمتدح

نفسه بالابداع وقوة التخيل لا أن يمتدح ممدوحه برفعة الشأن وعلو المقام) ونحن نوافق المنفلوطي في كل هذا وان كنا نخالفه في أصل تسمية الحديث لانا نربأ بالعقول السليمة أن يكون ذلك مثل من آثارها ونرى ان أحرى الاحاديث بهذه التسمية حديث العقل الناضج الموهوب الذي أوتي قوة الحكم وحصافة المنطق الصحيح

وأخيراً يأتي المنفلوطي على تعريف ثالث الاحاديث فيقول (وأما حديث القلب فهو ذلك المنثور أو المنظوم الرأي تسمعه فتشعر أن صاحبه قد جلس الى جانبك ليتحدث اليك كما يتحدث الجليس الى جليسه أو ليصور لك مالا تعرف من مشاهد الكون أو سرائر القلوب ... " من حيث لا يكون للصناعه اللفظيه ولا الفلسفيه دخل في هذا أو ذاك والمنفلوطي يحتفل بهذا الحديث أيما احتفال ويعده أول العوامل الاربعة التي أعانته على كتابة كلماته

والتي يقول في (ثانيها) انى ما كنت أحمل نفسي على الكتابة حملا .... بل كنت أرى فأفكر فأكتب فأنشر ما أكتب فأرضى الناس مرة وأسخطهم أخرى من حيث لا أتعمد سخطهم ولا أطلب رضاهم

(وثالثها) أنى ما كنت أكتب حقيقة غير مشوبة بخيال ولا خيال غير مرتكز على حقيقة لانى كنت أعلم أن الحقيقة المجردة من الخيال لا تأخذ من نفس السامع مأخذا ولا تترك في قلبه أثرا : كذلك الخيال لا يذهب ولا يزعجه من مكانه الا الخيال . وقد تقنتم بهذا

المبدأ اذا رجعت الى تفصيل تعليله فى مقدمة النظرات

(ورابعها) أنى كنت أكتب للناس لا أعجبهم بل لانفعهم ولا لاسمع منهم أنت أحسنت بل لاجد فى نفوسهم أثرا مما كتبت

هذه تعاليم المنفلوطى ومبادؤه القوية يضعها بين أيدينا . ونحن نرى صحتها جميعا لانها فطريه طبعيه يوحيها العقل والمنطق . ولو أخذ الانسان نفسه بها وزكنها فيه موهبة موقفه لبلغ الغاية التي يطلبها من الادب وصناعة القلم

عاطفة المنفلوطى

بعد ان بينا الاسس التى يقوم عليها أدب المنفلوطى يجدر بنا أن نرجع الى الظاهرة القوية التى يمتاز بها هذا الادب لنحللها ونعرف الاسباب التي أدت بالمنفلوطي اليها . وهذه الظاهره هي الروح الانسانيه التي يلمسها كل من قرأ المنفلوطي فأنت تراه في النظرات أو العبرات أو أي كتاب من الكتب التي عربها أو تناولها بالتلخيص . تراه فى كل ذلك إنسانا شاعراً رحيما يملك العطف قلبه فيتألم (والالم من عناصر الحياه بل هو من جمال الروح أما اللذة فمن جمال الجسم) ثم تأخذ الشفقة بزمامه فيبكي البائسين والمنكوبين وأولى الحاجة المعوزين

هذه أظهر العواطف فى أدب المنفلوطى فما سرها إذن ? . أما أنا ورأيي —بقدر ماوصل اليه اجتهادى — أنها نرجع الى عاملين :

(١) طبيعته النفسية (٢) ماتأثر به

فاما عن طبيعته فنحن جميعا نعرف أن الطبائع البشرية يهب

مقسم بين الناس وأن اختلافها وتباينها هو سر بقاء هذا المجتمع وكنه وجوده (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم) ولقد كان من حظ الانسانية أن يودع المنفلوطي هذه الطبيعة الرقيقة الحساسة سواء كان قد وهبها أو كان كما يقول المربون قد ورث استعدادها وتظاهرت عوامل البيئة عليه فانمته وهذا مانرى أن المنفلوطى قد تأثر به وذلك :

(١) لان المنفلوطى كما عرفنا — قد نشأ فى بيئه دينيه أشرب روحها فتاثر بتعاليم القرآن والحديث الشريف . بل ان فهمه لاحكام الشريعة وتعلقه بها كان من أقوى الاسباب التى حببته الى جمهرة القراء اذ كانت الناحية الدينية لاتزال صاحبة التاثير الاول فى النفوس وتكاد تكون الرحمة والشفقة والديمقراطية الحقة أظهر مايتصف به هذا الدين الحنيف . فلا غرابة اذن أن يكون هذا أحد البواعث القوية التي عملت على انماء هذه العاطفة فى نفس المنفلوطى

(٢) كان من بين الكتب التي قرأها المنفلوطى في صباه كتب الادب العربي كما قدمنا — وهي تضم فيما تحويه كثيرا من قصص المنكوبين وأحاديث المحزونين وسير المغرمين الذين شغفهم الوجد وأضناهم الحب وذهبت بهم تباريح الصبابة والهوى — فما هو يرى المهلهل يبكي أخاه . وامرأ القيس أباه . و(جليلة) تندب زوجها وأخاها والمجنون يهذى بليلاه . وجميل يقف بين يدى أبيه وهو يعتب عليه أشد العتب وأمره في استهتاره بحب (بثينه) ومخاطرته بنفسه في الالمام بها . فيقول « هل رأيت أحدا قدر أن يدفع عن قلبه هواه أو ملك

أن يسلي نفسه ... إلى أن قال ولن أمتنع عن طروق هذا الحي - أي حيها - ولومت كمدا . كما رأى بكاء النبي صلى الله عليه وسلم عند ماسمع قيس بن عاصم يحدث عن نفسه كيف كان يئد بناته في الجاهلية وأن واحدة منهن ولدتها امها وهو في سفر فدفعتها الى إخوالها ضنا بها على الموت واشفاقا عليها فلما عاد وسألها عن الحمل قالت له انها ولدت مولودا ميتا ثم مضت على ذلك سنون عدة حتى كبرت البنت ويفعت فزارت أمها ذات اليوم فرآها عندها فأعجب بجمالها وعقلها وذكائها وسألها عنها فحدثته حديثها على وجهه ولم تكتم شيئا طمعا في أن يضمها اليه ويمنحها رحمته وعطفه فأمسك عنها أياما ثم تغفل أمها ذات يوم وخرج بها الى الصحراء حتى أبعد فاحتفر لها حفرة وجعلها فيها فاخذت تقول : ياأبت ماتريد أن تصنع بي ، وما هذا الذي تفعل ؟ وهو يهيل عليها التراب ولا يلتفت اليها وهي تئن وتقول . أتاركي أنت ياأبت وحدي في هذا المكان ومنصرف عني ؟ حتى وارها وانقطع انينها . وبكاء الاعرابية التي مات ولدها في دار غربة فدفنته ثم وقفت على قبره تبكي وتقول « والله يا بني لقد عدوتك رضيعا . وفقدتك سريعا : الخ » هذا وأمثاله من مواقف البؤس . ومصارع الشقاء . كانت تربة صالحة نمت فيها عاطفة المنفلوطي وتأثرت بها الى حد بعيد . وقد علل المنفلوطي شغفه بهذه القصص الحزينة الدامعة فقال « كأنما كنت أرى الدموع مظهر الرحمة في نفوس الباكين فلما أحببت الرحمة أحببت الدموع لحبها أو كأنما كنت أرى أن جمال العالم كله في الشعر وان الشعر هو ماتفجر من صدوع الافئدة الكليمة فجرى من عيون الباكين مع مدامعهم وصعد

من صدورهم مع زفراتهم »

أما ثالث هذه العوامل فكان شخصيا صرفا يحدثنا عنه المنفلوطي فيقول « كنت انسانا بائسا لم يترك الدهر سهما من سهامه المريشة لم يرمني به ولا جرعة من كأس مصائبه ورزاياه لم يجرعني اياها . فقد ذقت الذل أحيانا . والجوع أياما . والفقر أعواما . ولقيت من باساء الحياة وضرائها ما لم يلق بشر فشعرت بمرارة الحياة في أفواه المساكين ورأيت مواقع سهام الدهر في اكباد البائسين والمنكوبين فكان من همي أن ابكي كل بائس واندب كل منكوب وأطلب رحمة القوي للضعيف والغني للفقير والعزيز للذليل »

ولعل المنفلوطي كان يعرف ايضا انه من السهل ان يوجه هذه القلوب الى مايريد لان طبيعة القلب التغير وهذه مدام (كيلي Kelly) الفرنسية « تشبه القلب الانساني بالشجرة تذوي في الخريف وتعود اليها ازهارها وثمارها في الربيع » .

هذه هي العاطفة النبيلة التي عرفها الناس في المنفلوطي فقدروا آثارها وحيوه من اجلها وهتفوا به رسولها والمبشر بها . فلننظر إذن ماذا يقول النقد فيها

مناقشة ما يأخذه النقاد على المنفلوطي

في عاطفته وادبه واسلوبه

يعرض لهذه النقطة كاتبان معروفان هما الاستاذ العقاد والمازني أما الاستاذ العقاد فقد رأى الناس يلقبون المنفلوطي « بكاتب

النفس الانسانية » فهاله ذلك وذهب الى ان هذه أبعد صفاتها الطبيعية وأن الناس لم يخطئوا فهمها الا لانهم لايفرقون بين الالم الذي يتمثل في الدموع والالم الذي نحس به احساسا حقيقيا وراح يوضح لنا ذلك فقال « أري أن غزارة الدموع شيء والاحساس بمصائب النفس الانسانية شيء آخر فالاطفال أكثر الناس بكاء وأغزرهم دموعا ولكنهم أغرب الناس عن الحزن وأنآهم عن لواعج الآلام وتجارب الايام » وتدرج من هذا الى ان المنفلوطى عجز عن تجربه الحياة وابتلاء ما فيها من الخير والشر والفرح والحزن وانه لهذا (كالسابح) المقرور الذى يقف على شاطىء البحر فيقترب منه في خوف وحذر ويغمس فيه اطراف أصابعه فى تردد وأناة ثم تسري في جسمه قشعريره فيرتد عنه ويحجم عن خوض عبابه ويتهم البحر ويرثى للسابحين فيه ! على انه لو رمى بنفسه في الماء لتغيرت حاله ولرأي (أن الرثاء الذى خامره على حافة البحر هو الخليق من السابحين بالرثاء وأن الحـزن في غمره الماء قوة وشعور ولكنه على الحافه الندية خوف من القوة وهرب من الشعور)

هذا ما يراه العقاد فى هذه النقطه وقد يكون فى جملة صحيحا لان كل مقدمة على حدة تنتج نتيجتها ولكنك لو دققت النظر لاحسست فى الكلام بعض المغالطة لان القياس العام لا يؤدى الى نتيجته المنطقية ـ فأما أن الطفل تبكي عينه لما لا يحزن قلبه لان حاله العقلية لاتسمح له بذلك فهذا مسلم في ذاته ولكن على أن المنفلوطى يشابهه فذلك مالانقبله بحال والا فأين هذه العقلية الناضجة المفكرة من هذه العقلية الطفلة الصغيرة التي قد تلهيها الحلوي عن أعظم بلوى ؟

انا نعتقد واثقين أن رجلا كالمنفلوطي لا يبكي فيكثر الا حيث يري الالم يسود قلبه ويلتهم سويداءه واذ ذاك يحس فيتألم فيكتب كما كانت عادته

كما لا يمكننا ان نسلم بأن المنفلوطى ظل فى مكان هذا السابح المقرور ولم يرم بنفسه فى لجة البحر فيعرف ما وراء هذه الموجات المتلاطمات المغريات لان الرجل قد خبر الحياة وعرف حلوها ومرها ولاقى كثيرا بأسائها ومعاصره يذكرونه بذلك وهو يحدثنا عنه. ونحن نعتقد فى صاحبنا الصدق ـ بل ان الظن ليذهب بنا الى انه خبر الحياة أكثر ممن ينتقده لانه تذوقها صغيرا وجاهد فيها كثيرا

ونقطة اخرى يعالجها العقاد فى نقده ايضا وهي ان ابطال المنفلوطى فى قصصه ومقالاته كانوا فى حال من البؤس والضنك تستدر العطف لاول وهلة فانك لا ترى منهم الا فتى مات ابوه وجار عليه كفيله وضن عليه بينته التى يحبها وتحبه ونبذه حيث لا امل له ولا مأوي فما زال به الفقر والوله حتي اسلماه الى الموت . . . او فتاة غوت فقادتها الغواية الى الفجور وقادها الفجور الى الداء وانتهى بها الداء الى الموت . من كل ما يتصل بهذا وامثاله.

والاستاذ العقاد يرمى الى ان هذه الآلام القاسية عامة يتاثر بها أجف الناس شعورا كما يتأثر بها أرقاهم. وأن هناك غير هذه الآلام المادية الملموسة آلام اخرى تعلو على الطعام والشراب والمتاع. وهذه ينفرد بها الانسان الشاعر وهي آلام النفس: فانت قد تتم لك نعمة المال والبنين وتدين لك المتعة والصحة وانت مع هذا في سورة مع ضميرك لا تهدأ وحرب لا قرار لها ولا سلام. وقد تعشق ويسعدك العشق لكن مع هذا فى حال

من القلق يشبه الكرب والشقاء . فهذه في الواقع أقسى الآلام على نفوس هذا النوع من الناس . والعقاد يريد أن يثبت بهذا أن المنفلوطي لم يعالج هذه الناحيه في قصصه . ونحن نوافق الاستاذ العقاد على وجهة نظره فيهذا ولكن لاننسى أن العقاد يقرر ذلك في زمن غير الزمن الذي كتب فيه المنفلوطي قصصه ويقدر للشعب ذوقا لم يكن قد وصل فيما مضى الى هذه الدرجة من الرقي . وفي وسع حضراتكم أن تقدروا ذلك جيداً اذا وازنتم بين الحال الادبية التي تسود الامه المصرية الآن وحالها قبل سنة ١٩١٨ . على ان هناك قاعدة مقررة كان لا بد للمنفلوطي أن يخضع لها وهي ان الانسان الذي لم يرتق شعوره بعد ، لا يتأثر اول الامر الا بالشيء القوي الأخاذ الذي يلمسه ويكاد يحس وقعه عليه وانه كلما ارتقى شعوره كان اقرب الى التأثر بما هو اقل ولذلك يقرر علماء الجمال ان القبائل التي لم ترتق اذواقها تتأثر اولا بالالوان الزاهية بينما تجد غيرها يتأثر بما عداها . فترى السيدة من الاشراف تميل الى الالوان الخفيفة والقاتمه أو على الاقل المتناسبه بينا تجد خادمتها السوداء تميل الى الالوان القوية كالاحمر والاصفر . . . فالمنفلوطي اذن كان مضطرا الى الطريق التي سلكها لانه كان يكتب للشعب - كما سنبينه - لا لهذا الصنف الخاص من الناس وهو محتاج في تهذيبه الشعب - الحديث العهد بما يكتب - الى المواقف القوية الأخاذة التي تلفت نظره وتجذبه اليها فتؤثر فيه الاثر المطلوب

أما صاحبنا المازني - غفر الله له - فيرى في هذه العاطفة النبيلة مظهر النائحة التي لا تفتأ يومها شاكية باكية . ويسمح له أدبه بأن يصرح

فيقول (فبالله مالهذا الحانوتى الندابة وللادب الذى هو حياة الادم وروحها وباعث القوة فيها وناقث الحرارة في عروقها) كأنما نسى.أعزه الله. أن الادب الذى يغار عليه يستحى أن يصف كاتبا عاديا بهاتين الصفتين الوضيعتين قبل أن يرمي بهما كاتبا تجتمع على محبته القلوب ويقرؤه من الناس أكبر عدد عرف حتى الآن — على أى حال فنحن انما نبين هذا تقريرا للحدود التي التزمها الناس في النقد

ولهذا وافقنا الاستاذ المازنى اذ رأيناه ينتقد في هدوء الكلمة التي قدم بها المنفلوطى عبراته وهي « الاشقياء فى هذه الدنيا كثيرون الخ » فيقول « ان وظيفة المرء فى الحياه ليست أن يكون باكيا فما لهذا خلق بل وظيفته أن يغالب قوة الطبيعة ويصارعها لان الاصل فى الحياه هو هذا الصراع وتلك المغالبة » . وهناك مع ذلك وجهة نظر أخرى خليقة بالاحترام . فمعروف أولا أن حال النفوس تختلف فى درجة ماينزل بها من حدثات الزمان وصروفه وأنت اذ ترى غيرك — وليكن أحد من صورهم المنفلوطى فى قصصه — على حال من الالم والبؤس دونك بمراحل ، لاشك يهون عليك أمرك ويخف عنك ألمك . وهذا مايقرره « سقراط » أذ يقول (لو وضعت مصائب الناس كلها في كومة واحده وأبيح لكل واحد أن يختار منها ماشاء لاختار كل مصيبة واستردها) اذن فلم يكن المازني مصيبا فى جوهر هذه الفكرة أيضا لان القصة التى تقلل همك أو تفرجه تبعثك على الرضا بحالك والرضا يبعث على الامل والامل هو الوازع على الجهاد والانتصار في الحياة. فكأن الحال على العكس مما يذكره المازنى .

قد يكون الذى ذكرنا دفاعا عن المنفلوطى من الوجهة النظرية ولكن هناك الى جانب ذلك الامثلة العمليه التى ضربها المنفلوطي تؤيد هذا وتقويه :

فأولا كيف بنا نقر الاستاذ العقاد على وجهة نظره من أن المنفلوطى كان يبكي فقط دون أن يحس احساسا حقا بمواقع الالم اذا سمعنا هذا الذي يذكره الكتاب من أن المنفلوطى رحمه الله دخل المؤيد بعد اعلان الدستور العثماني فرأى محررا سوريا به على حال من الالم شديدة فتحدث اليه قليلا ثم مده بمائة جنيه استطاع أن يجعل له بها خمسه وعشرين سهما في جريدة المؤيد. وأنتم أدرى بمكانه المؤيد اذ ذاك . وقد حدثني أيضا أحد أصدقائي فقال: كنا في الزقازيق الثانويه حوالى سنة ٩٢٠ وكان بيننا طالب رقيق الحال فطلب من المنفلوطى أن يبيعه كتابه «الفضيلة» بثمن مخفض فأرسل اليه نسخة هدية منه وشجعه على مواصلة دراسته .

بل كيف نستطيع أن نقر المازنى على مايراه من أن المنفلوطى كان يعمل ولو بطريق غير مباشر على تثبيط همة البائس واثنائه عن الدخول في ميدان الحياة ليصارعها اكتفاء بما يكسبه بين يديه من عبرات . ثم كيف نقر هذا اذا علمنا أن المنفلوطى كان يشجع البائسين ويضرب لهم الامثال بالنبغاء المثابرين ليحتذوهم . ولقد حدث ان أحد المعوزين زاره فبعد ان مد اليه يدا كريمة شجعه على العمل وذكره (بالشيخ على يوسف) وكيف أنهم صادروا جريدته مرتين ومع ذلك كان يعمل ويقول (مادام لك رأس فدع الحوادث تمر تحت قدميك)

هذه احدي النقط التي عالجها النقاد . وقد ذكر الاستاذ العقاد أيضا أن المنفلوطي كان أول من أدخل (المعنى والقصد فى الانشاء العربي بعد أن ذهب منه كل معنى وضل به الكاتبون من كل قصد) وأتى على وصف الحال التى كان عليها الناس قبل أن يظهر فيهم المنفلوطى وكيف كانوا أسرى التكلف والتقليد وأن الكتابة كانت جامدة عند صيغ محفوظة وقوالب لايعتورها تصرف ولا تبديل الاعند الضيق الذى لامحيص عنه والافلاس الذي لاحيلة فيه . وكيف أن أغراض الكتابة كانت كخطب المنابر تعاد سنه بعد سنه بنصها كانها تعاد من آلة حاكية . وبين أن المنفلوطي قد تخلص من هذا الاسترسال من السجع المبتذل الذي كان الذخيرة اللفظية في تلك الايام. ثم أراد أن يدلل على مكانة المفلوطي فعقد بعد ذلك موازنة بين الكتاب والمنشئين مبسوطة فى كتابه (المراجعات) خلص منها الى أن المنفلوطى (منشئ) وليس بكتاب أو أنه أقرب الى جماعة المنشئين منه الى جماعة الكتاب . وأنت اذ تعلم أنه يحد الكاتب بأنه (انسان قبل أن يكون حامل قلم وصائغ كلام وأن فضيلته فضيلة نفس شاعرة مدركه وأن له رسالة وفيه موهبة خارقة أو ناحية ينظر بها الى الحياة لا كما ينظر اليها الناس . وأن المنشىء عنده خلو من هذا كله فليس سوي صاحب توشية وصقل لايتصل باللباب ورب زينة يسرك أن تنظر اليها وتفقدها اذا حاولت أن تنقلها الى لغة غير لغتها وأن فضيلته ليست فضيلة انسان يخاطب جميع الناس بلغة الحياة بل فضيلة حروف لاحياة فيها وأصداء لا ارتباط لها بمعانيها . نعم اذا علمت ذلك هالك هذا الحكم

وأنا أصارحكم بأني ان استطعت أن أفهم هذا كتعريف لا أستطيع أن أفهمه كقياس يدخل به المنفلوطي في زمرة المنشئين فتنقصه الانسانيه والشاعرية وقوة الحياة الكامنة في كتابته . وأي شيء يبقى للرجل اذا سلبناه هذه الصفات التى لم تتميز كتابته بشيء تميزها بها . وكيف تتصور أن كتابته لاروح فيها وهو أول من شهد له بأن كتابته قطعة من نفسه . وكتابة هـذه صفتها كيف لاتقوي على المعيشة في الاجواء الاخرى . ومنها مالو ترجم لكان آية الآيات فى بابه وبحسبك أن تقرأ له مقال (الشعرة البيضاء) أو (الهاوية) أو (ذكري الاربعين) . أو أي موضوع تختاره لتتبين صحة هذا الذي ندعيه

وقد حدثني أحد الاصدقاء : ان الاستاذ « العقاد » كان بحضرة « سعد » مرة ... فجرهما الحديث فى الادب الى ذكر « المنفلوطي » فبسط الاستاذ العقاد ما يراه فى (المنشيء والكاتب) . فكان رأى سعد — رحمه الله — أن (المنشيء) — بدلالته اللغوية — مبدع مبتكر موجد فهو — لذلك — يفضل (الكاتب) الذى كثيرا ما يتغذى على موائد غيره ... ولعلى أذكر ان الاستاذ العقاد نشر هذا الحديث بعدد من (الهلال) سنة ١٩٢٧

ويرى المازنى أيضا الى جانب ما تقدم من فكرته ان أسلوب المنفلوطى تغلب عليه النعومة بل ماهو أدنى منها وهو « الانوثة » وينعى على الناس ما يتذوقونه منه فيقول « ولست بواجد شيئا من هذه الحلاوة — ياهذا الفم المريض !! — في كلام المنفلوطي سواء فى ذلك شعره ونثره لانه متكلف متعمل يتصنع العاطفة كما يتصنع العبارة » .

ولست أعرف والله أي عقل يتصور هذا الذي يدعيه صاحبنا ! وفى أى ناحية من كتابته يراه ؟ والكتاب لم يجمعوا على شيء اجماعهم على ان أسلوب المنفلوطي كان سهلا مرسلا من « النوع الذي اذا سمعه الجاهل ظن أنه يحسن مثله » ولكنه — اذ يحاول — تنقطع دونه الاسباب .

وللمازني ملاحظات أخرى ثانوية : منها ان المنفلوطي كان يعالج الاقناع والتأثير بضروب من التوكيد والغلو . وأنا أري ان بناء قصصه على الحال التي سلمنا بها كان يستلزم ذلك . أما في غير القصص فأنا مع المازني الا اذا كانت الحال تستدعي التأكيد طبعا . ومنها انه كان يكثر من استعمال المفعول المطلق والنعوت والاحوال . وأرى ان هذا لايعد عيبا في الكتابة المرسلة التي هي بالاسلوب الخطابي أشبه . والمفعول المطلق من اكثر الكلمات ورودا في خطب أعاظم الخطباء . هذا مجمل ما رآه المازني ولا أخفي على حضرتكم أني ألمح فيه الغرض وسخيمة الحسد (*) وشبح الرغبة فى الظهور على أكتاف الآخرين وهي الروح التي أراها سائدة أحياناً فى كتاب « الديوان » الذي اشترك هو والاستاذ العقاد فى اخراجه حوالى سنة ١٩٢١

(*) وشتان مابين هذا و بين المنافسة الفاضلة . يقول (فولتير) :

De L'émultion distinguez bien l'envie
L,une méne a la gloire, et l'autre au déshonneur
L'une est l'aliment du génie
Et l'autre est le poison du cœur

أي ميزوا جيدا المنافسة من الحسد : الاولى تقود الى المجد والثاني الي العار . و بينا تكون المنافسة غذاء القريحه اذ يكون الحسد سم القلب

وأذكر ان للاستاذ «المهياوى» كتيبا فى نقد قصة «اليتيم» وهي أول قصة للمنفلوطي فى كتابه «العبرات» كما جرد الدكتور «طه حسين» حملته على الرجل وعلى كتابه «النظرات» في كتاب سماه «نظرات فى النظرات» لم يسعدنى الحظ بالاطلاع عليه ولعلى أذكر ان تحامله كان لدوافع خاصة

وممن نقد المنفلوطي أيضا كاتب نشر فى البلاغ سنة ١٩٢٤ كلمة بامضاء (س . م) وأظنها لصاحب المجلة الجديدة لانى قرأت فيها روحه الاشتراكية . وقد بدأها بأن المنفلوطي نجح في طريقته وانه أول كاتب ربح كثيرا من أدبه . ولكنه يعزو سبب نجاحه الى انه كان يفكر تفكير الجماهير ولا يقول الا الشيء المألوف . مثل (الصدق حسن والكذب ضار) ويكسو كلامه التشبيه والسجع وهذا ماحببه الى طلبة المدارس فعملوا على نشر صيته ويرى أخيرا ان أدب المنفلوطى لا يعيش بعد موته الا اذا بقيت الامة على تقديس البديع . أما اذا ظهرت كتابة قوية فانه لن يعيش. فأما عن النقطة الاولى فأري ان استعانة المنفلوطى بالمحسنات ليست مما يؤخذ عليه كثيراً اذا علمنا أنه نشأ في عصر كان الكتاب فيه يجهلون استعمالها أو يخرجونها ركيكة باردة متعملة . ولهذا رأينا المنفلوطي يتركها حين رأي ان الوسط الادبى قد ارتقي . أما عن بقاء كتابته بعد موته فلا أدل عليه من ان كتابة المدرسة الحديثة

تكاد تكون ثمرة من ثماره (وحياه الكاتب ـ كما يقول هو ـ بحياة كتابته فى نفوس قرائها)

بقيت الناحية الحزينة فى كتابة المنفلوطيوقد عرفتموقف بعض

الكتاب حيالها وكيف شدوا النكير عليها فسخروا من آلام الرجل وهزءوا بدموعه وأحزانه · ولست أفهم قصد هؤلاء الذين يحولون بين المرء وقلبه . الرجل متألم حزين أنابت الايام فؤاده . فما عليه ان جعل هذا لمداداً لكلماته ! . وأي شيء يعاب عليه فيه؟ وهذا (جوت Gœthe) شاعر الالمان يتقمص شخصية خيالية فيحدث الناس عن نفسه في (آلام فرتر) و (هيجو Hugo) شاعر فرنسا يخلص الى مثل ذلك في روايته (البؤساء). وهذا (اسكارويلد) في انجلترا يتهافت الانجليز على قراءته ويحيونه تحية الكاتب المحبوب . وكل هؤلاء — كصاحبنا — متألم حزين بل أن آخرهم ليقدس الالم ويرى انه طابع لكل فن عظيم ·

وانه ليخيل الى (أن هذا الجانب من كتب المنفلوطي سيلبث نبع العزاء والعطف لكل بائس حزين ولن يفنى هذا الجانب من مؤلفاته لا اذا تقشع الحزن وزال البؤس من الارض وهذا لن يكون ....)

تقدير أدب المنفلوطى

وبعد :فلسنا نزعم للمنفلوطى الكمال والعصمة فله ما لكل بشري من نقائص ولهذا نقدره كل التقدير ونري فيه (الكاتب الحى) بكل المعانى التى تحتملها هذه الكلمه ويكفى أن تسندنا في ذلك شهادة زعيم الخطابة والبيان فقيدنا العظيم اذ كان يقول له (انى لا أرى لك فى كتابتك شخصية أتمنى أن أجدها كثيرا فى اقلام الكاتبين) وهاهم كبار الكتاب والشعراء يقررون ذلك فى مقدمة الطبعة الاولى من كتابه النظرات فترى (حافظ بك عوض) يرفعه فى ترجمته(والمويلحى)يعترف

له برقة الوجدان وصدق الحس (وحافظ ابراهيم) يكاد يرتفع بأسلوبه الى ماكان النبوه (وجورج زيدان) رى أنه جمع بين بلاغة صدر الاسلام وأدب تلك الايام . بل هاهو الاستاذ العقاد يقول فى نهاية نقده (ولكننا نقدر المنفلوطى ولا نريد أن نبخسه حقه وننكر عليه أثره . . . . ولعل الناس كانوا فى حاجة الى منفلوطى يظهر لهم لو لم يظهر لهم هذا المنفلوطى الذى أحبوه وأقبلوه عليه

وفى الحق ان المنفلوطى ليبدو أعظم مقاما وأجل مكانا اذا علمنا أن زمام الادب في العصر الذى سبقه كان بين طائفتين : جماعة القضاة وهؤلاء كانوا قليلى الانتاج لضيق وقتهم ولاهتمامهم بالادب الغربى قبل كل شىء . وجماعة السوريين وهؤلاء حملوا الى مصر لغة ليست بالعامية الضعيفة ولا بالعربية الفصيحة فأودعوا الادب لغة خلطوا في تراكيبها بين العربية والعامية والفرنسية والانجلزية

نعم ان الناس عرفوا (المويلحي) قبل المنفلوطى وجاء كتابه (حديث عيسى بن هشام) غذاء للحال التي تعجبهم اذ ذاك من الجلوس في أفنيه دور الاغنياء والاستماع لنكات الشعراء والظرفاء ولكنهم نسوا المويلحى بالمنفلوطي لانه خلقهم خلقا جديدا

المنفلوطى كاتب اجتماعى

ويمكنك ان تعد المنفلوطى أول كاتب اجتماعي ظهر فى مصر الحديثه فلقد رأى كثيراً من عيوب المجتمع المصري فتولاها بالعلاج الناجح ونجح الى حد كبير . ورمي الى التجديد العاقل فحارب العادات والتقاليد السخيفه وحمل على خزعبلات العامة من مثل وضع المال في

صناديق الاولياء والمغالاة في مرضاتهم والاعتماد عليهم كما حمل على الاوصياء الذين يأكلون مال الارامل واليتامى والاغنياء الذين يراءون الناس بالصدقة في موضوع (الاحسان)

وكان فيه حمية مصرية : أبى عليه — مثلا — أن يصبح السيد المصرى في (منزله) يستحى من خادم غرفه الاوربية أن تطلع منه على جهل ببعض عاداتها أوعادات قومها حتى فى لبس الرداء وخلع الحذاء أكثر مما يستحى من الله ومن الناس أن يهجموا منه على أرذل الرذائل وأكبر الكبائر

وهال (نخوته الشرقيـة) : أن يصبح تاريخ الشرف وتاريخ علمائه وأدبائه وفلاسفته وشعرائه صورة من أقبح الصور واسمجها في نظر كثير من الشرقيين يفخرون بجهله ان جهلوه ويراءون بجهله أن علموه

(*) وخير موضوعين وجه المنفلوطي اليهما نظره وقلمه هما نشر الديمقراطية . واصلاح حال المرأة المصرية ، فتجلت ديمقراطيته السياسية فى حب الحكم الديمقراطى ومعاونة دعاته وأنصاره وتجلت ديمقراطيته الاجتماعية في المناداه بمساعدة الفقراء والمساكين ومكافحة الرشوة والمرتشين . ووقف الحكام عند حدودهم ووجوب سريان المساواة بين الجميع . نذكر مثالا لذلك حملته التي شنها على حاكم من

(*) من مقال (بالبلاغ). الاديب الفاضل الاستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتي المحامى

من الحكام أنف من وقفة رجل رث الثياب الي جانبه في الصلاة اذ قال في ذلك موجها القول الى الحكام :

(ليست العظمة التي تعرفونها لانفسكم الا منحة من الفقراء اليكم فلولا تواضعهم بين أيديكم ماعلوتم ، ولولا تصاغرهم في حضرتكم ما استكبرتم فلا تجزوهم بالاحسان سوءا) .

والموضوع الثاني الذى عني به هو موضوع المرأة المصرية فقد أراد لها حرية جزئية وعارض القائلين بمجالسة النساء للرجال ورأى ذلك تمزيقا لحجاب عفتهن وسحرهن وقد دعم رأيه بقصة (الحجاب) التي أوردها بكتابه (العبرات) وهي قصة موضوعيه من اختراعه وخياله ولكنه أبرزها في رداء الحقيقة الناطقة . ولا أعرف أقوى ولا أمتن من تلك القصة في الدفاع عن الحجاب وتفنيد حجج أنصار السفور . قسا المنفلوطي فيها على السفور قسوة عنيفة وكان بديعا في قسوته .

وقد يكون المنفلوطي وهو من طلاب الحرية والمثل العليا متناقضا مع نفسه في احتجاب المرأة ، والحق أنه خضع لهذا التناقض أمام الواقع الصارخ وهو جهل المجتمع المصري وضعف خلقه .

ولم تكن المنفلوطي رجعيا في كتابته عن المرأة المصرية بل كان نسويا معتدلا منطقيا . وقف امام المرأة موقفا متوسطا بين الواقع والمثل الاعلى وأرادها على البقاء بالمنزل مع حسن معاشرتها واحترامها وتقديرها واعطائها قسطا عادلا من الحرية . وقد خص هذا الرأي في مقال له تحت عنوان (احترام المرأة) جاء فيه

(يجب أن تعيش المرأة في جو الحرية الفسيح وتستروح رائحته

الاريجه ليستيقظ ضميرها الذى أخمده السجن والاعتقال، من رقدته يجب أن نحترمها لتتعود احترام نفسها)

فكأن المنفلوطي أراد المرأة الحرية والسعادة ولم يضيق عليها طريق النظر والتفكير وأبى عليها فقط أن تخرج الى الرجال وتهم في مجتمعاتهم خليعة مستهترة وحبب لها المنزل لتبقي فيه سيدة جميلة محبوبه . وتلك الفضيلة الاجتماعية هي - كما قال - العزاء الوحيد لهذه الامة عن جميع آلامها ومصائبها

وأنت اذا أضفت الى كل هذا أنه أحب العامل وعطف على جهوده وتفهم نفسية الجماهير وان كتابته جاءت منطبقة على أحدث النظريات الاجتماعية التى يقرر بعضها (جوستاف لوبون) فى كتابه (روح الاجتماع) . نعم اذا تصورت هـذا كله أمكنك ان تقدر الاثر الذى أحدثه المنفلوطى: لافى مصر وحدها بل فى كثير من البلاد العربية. ولهذا كنت ترى الجزيره وسوريا والعراق يحتفلون بكتابته أيما احتفال. ولا أدل على مبلغ هذا الحب من ذلك الاتصال الروحى الذي تمثل فى الاسئلة والاجوبة التى تبودلت بين المنفلوطى وقرائه. وانى لاعرف تاجرا عاديا قرأ المنفلوطي في بعض كتبه أكثر من ثلاث مرات. وأنتم أدرى بمكانته بين الطلبة وجمهور المتعلمين من مختلف الطبقات وهؤلاء فى الواقع هم مدرسته التى أحبته فغذاها بأفكاره وعملت أخيرا على نشر مبادئه وتعاليمه . وهكذا تمتع المنفلوطى بحب هـذه الطبقات كلها لانه أحبها وعطف عليها وكان بينها رسول الانسانية العادلة الرحيمة . ولا أدل على ذلك من قوله (ان قيمة المرء في حياته أداء واجبه للانسانية

أولا ولامته ثانيا ولنفسه أخيراً)

ويمكنك أن تعد المنفلوطى أيضا أول من وضع فن الرواية والقصة في الادب العربى سواء ما كتبه من ذلك فى العبرات أو صور به بعض الوقائع في النظرات مضافا الى ذلك الجهد الذى بذله فى تلخيص روايته المحبوبة (مجدولين) وروايـه (في سبيل التاج) التى استملى الثورة المصرية روحها وقدمها في كلمات رائعة الى الزعيم الخالد. كما تمكن من تحويل (الشاعر) من رواية تمثيليـة الى رواية مقروءة - ولا ننسى بهذه المناسبة أن نثنى على أصدقائه الذين عاونوه على التعريب وعلى رأسهم الاستاذ فؤاد بك كمال الناموس (السكرتير) العام لمجلس الشيوخ. وقد كان الصديق الوفى المنفلوطى والاكبر عون له على التوفيق بين اللغة العربية وما يفهمه من الفرنسية فاستطاع المنفلوطي بهذا أن يخلف الادب تراثا خالدا . ويقال ان له غير كتبه المعروفة رواية سماها (البعث) كتبها بطريقة قصصية خيالية . ولكن أدبه فقدها لانها سرقت

اخلاقه ونفسيته

عاش المنفلوطى طول حياته رضى الحال طهور الخلق صافى الذهن لطيف الروح. عاش كالنبات الكريم يخرج ثمره ثم يفنى اذا حان حينه. في هدوء ووداعه . يزين ادبه الحياء المتواضع . يؤسرة الجميل ويعترف به : وآية ذلك القصائد التى وجهها الى استاذه الامام رحمة الله والتي يصفه فى واحدة منها بقوله :

مسدد العزم اذا ما مضى   يحار صرف الدهر فى رده
كالسيف يجلوه القراع ولا   يأخذ ضرب الهام من حده

ما فيه من عيب سوي أنه　　يحسده النـاس على مجده
ما حيلة الحساد في نعمة　　أسبغها الله على عبده

وتميز بالطيبة والعطف وحب الخير والحنان تلك الصفات التي ظهرت آثارها فى أعماله وفى كتابته التى كان ينتشر منها شذا الرحمة والفضيلة والوفاء والاخلاص

وآية ذلك مقالة «الزهرة الذابلة» فهي تعزية رحيمة لتلميذ فى السابعة عشرة من عمره اصابته حمى شديدة أورثته الصمم الكامل فضاعت آماله وكذلك مقاله «الوفاء» فهو نصيحة شفيقة لاحد الازواج الذى استشاره فى زوجة له كف بصرها أيطلقها أم يبقيها ؟ فكان جوابه له :

(أعيذك أيها الانسان بالله ورحمته والعهد وذمامه ، ألا تجعل لهذا الخاطر السيء ، خاطر الطلاق والفراق ، سبيلا الى نفسك فانها لم تسيء اليك فتسيء اليها ولم تنقض عهدك فتنقض عهدها . . . انك قد خسرت بصرها ولكنك ستريح قلبها ، وحسب الانسان من لذة العيش وهنائه فى هذه الحياة قلب يخفق بحبه ولسان يهتف بذكره)

لهذه العواطف السامية النبيلة كان يدعو المنفلوطى ولكنه كان كثير اليأس من قبول النفوس لدعوته فحينا تنبثق من ريشته الانوار وأخرى تغمرها الظلال . اسمع اليه يقول :

(لا سعادة فى الحياة الا اذا نشر السلام اجنحته البيضاء على هذا المجتمع البشرى ، ولن ينتشر السلام الا اذا هدأت أطماع النفوس واستقرت فيها ملكة العدل والانصاف وأشعرت القلوب الرحمة والحنان على البؤساء والمنكوبين فلا يهلك جائع بين الطاعمين ولا عار بين الكاسين) .

ولكن لا يلبث ان يعود اليه طائف التشاؤم فيقول :

(ما دامت هذه المطالب أحلاما كاذبة وأماني باطلة ، فلا مطمع في سلام ولا أمان ولا أمل في سعادة ولا هناء ولا فرق بين أمس الدهر ويومه ولا بين يومه وغده)

***

وكان رحمه الله عفيفا في نقده تقرأ ذلك فيما كتبه عن الادباء المعاصرين في نهاية الطبعة الاولى من (نظراته) كما كان يتقبل ما يوجه اليه من نقد قائلا (لا يتبرم بالانتقاد ولا يضيق به ذراعا الا الغبي الابله الذي لا يبالى ان يتحدث الناس على سيآته فيما بينهم وبين أنفسهم ويزعجه كل الازعاج ان يتحدثوا بها في مجالسهم) بيد أن بعض الكتاب أفحش في نقده فكان يقابل هذا بقوله (هذا جهد مستطاعى فاذا وجدوا أحسن منه فليأتوه) ثم يدأب على الانتاج والتأليف ـ هازئا بهذه الحملات الحاقده لاعتقاده (ان لدغات البعوض ـ كما يقول فولتير ـ لن تكبح فرسا عن سيره الجموح)

وكان يحيا حياة ذاتية لما في طبيعته من خلق النفرة من الناس والعجز عن احتمالهم على علاتهم ولهذا أحب العزلة وأنس بها ، اذ رآها في غيره من كتاب فرنسا وشعرائها فتراه يقول في نهاية موضوع (سياحة في كتاب) انه في جلسة (لامارتين Lamartine) منفردا في منزله لا مؤنس له غير كلبه وفي عزلة (دي موسيه) في غرفته بين دموعه وأحزانه وفي جلسة (كورني Çorneille) امام حانوت الاسكاف ينتظر ترقيع نعله لآية للمتفكرين وعبرة للمعتبرين)

وظائفه

أما وظائفه التي شغلها فكانها من صنع (سعد) العظيم وهي آية صادقة على مبلغ حبه له وتقديره للنابهين من هذه الامة الكريمة. فأذ كان (سعد) وزيرا للمعارف أوجد له بها وظيفة (المحرر العربي) وعهد اليه اختيار المحفوظات للمدارس الثانوية فوضع كتابه الكبير (مختارات المنفلوطي) ولما انتقل (سعد) وزيرا للحقانية نقله معه الى مثل وظيفته. واذ انتخب (سعد) وكيلا للجمعية التشريعية عينه ناموسا (سكرتيرا) بها. وبقي بعد ذلك في الحكومة الى أن كتب ينتصر (لسعد) في منفاه فرقته المرحوم (ثروت باشا). ثم استدعى محررا في السراي الملكية. وعاد منها الى الجمعية التشريعية وهي موقوفة فكان يتناول مرتبه (٢٨) جنيها وهو في منزله. ولما فتح البرلمان عينه (سعد) رئيسا (لسكرتيرية) مجلس الشيوخ بمرتب قدره (٥٠) جنيها. وبقي بهذه الوظيفة حتى توفي

ناحيته الوطنية

قدمنا أن المنفلوطي نظم وهو في الثامنة من عمره قصيدة نددفيها بالاحتلال كما عرض (بمصطفى فهمي باشا) فحاولت الحكومة القبض عليه ولكنه أفلت منها. ولقد رفعته هذه الحماسة الى أن ينظم في استقبال الخديوى قصيدته المعروفه التي مطلعها :

قدوم ولكن لا أقول سعيد وعود ولكن لا أقول حميد

فقبضت عليه الحكومة وسجن من أجلها ستة أشهر «والهلال» يذكر أنه لم يدافع عن المنفلوطي في هذه المحنة سوي المرحوم الشيخ

نجيب الحداد فى جريدته « لسان العرب » . ولذلك أراد المنفلوطي أن يكافئه بجميله بعد أن خرج من السجن ولكن المنية كانت قد عاجلت الشيخ نجيب فرثاه بقصيدة أولها :

منع النفس أن تنال مناها   سير تلك الآجال طوع قضاها
تشتهي النفس أن تعيش مدى الدهر   وتأبى الاقدار الا فناها
تتمنى لو نالت السعد لكن   كتب الله فى الكتاب قضاها

ثم قال يخاطب الموت :

هبك أمعنت في البرايا افتراسا   ثم لم تبق أرضها وسماها
« فنجيب » ذو حرمة في البرايا   هي أحري ياموت أن ترعاها

ولعل أيامه بالسجن علمته مايقاسيه المسجونون من الآلام لهذا كان من أشد الناس عطفا على الاستاذ الجديلي في سجنه السياسي - وهناك حادثة أخرى تنبئك عن مبلغ شجاعته وحماسته وكيف كان « سعد » العظيم يرعى هذه الوطنية الفتية ويشجعها : لما أتى الى مصر (روزفلت) وخطب في السودان يحرض انجلترا على عدم ترك مصر . انبرى المنفلوطي وهو موظف بالمعارف للرد على روزفلت في المؤيد . فغضب (دنلوب) الداهية وأراد النكاية بالمنفلوطي فقام (سعد) - وهو الوزير اذ ذاك - فى وجه دنلوب . قائلا (ان الحكومة في حاجة الى مثل السيد مصطفى وليس هو فى حاجه اليها والوظائف قبور للادباء . وخير للحكومة أن يكون مثله فى داخلها)

ولقد شجع المنفلوطي كل حركة لخير مصر فأحب (مصطفى كامل) الزعيم الشاب وقدره وعطف على جهوده وهاهو يقول فى رثائه « كان لمصطفى

كامل أنامل أشبه شيء بريشة الموسيقار يضرب بها على أوتار القلوب وكأنما كان بينه وبينها سلك كهربائي فهي تتحرك بحركته وتسكن بسكونه ...ما كان مصطفي كامل أذكى الناس ولا أعلم الناس ولا أعقل الناس ولكن كان أشجع الناس ... الى أن قال :

« أيها الراحل المودع : طبت حيا وميتا خدمت أمتك في حياتك وبعد مماتك . لولا حياتك ما نمت العاطفة الوطنية فى نفوس المصريين ولولا مماتك ماعرف العالم أجمع أن الامة المصرية على اختلاف مشاربها ومذاهبها تجمعها كلمة واحدة هي حب الوطن وحب رجاله العاملين »

كذلك ساهم المنفلوطي فى النهضة الاخيرة بأكبر نصيب . فغذاها بأفكاره وخلع عليها من نفثات قلمه ما بعث هممها وأيقظ قلوبها . وأحيا شعورها . وكانت له فى ذلك مقالات حماسية ملتهبة بعث بها في الصحف خلوا من الامضاء . وثم مقالاته السياسية الاخري التى ندد فيها بخصوم البلاد . ودافع فيها عن (سعد) دفاعا عظيما فصادرتها الحكومة . ثم عادت فأباحتها . اقرأ ما كتبه فيها عن أثر الانشقاق الذي حدث في الوفد الاول تحت عنوان (العاصفة) . . وحادث المؤامرة التي كانت تراد (بسعد) فى أسيوط . تحت عنوان (اليوم الاسود) . بل أنظر اليه كيف يسفه الانقسام والتحزب ويسميه جريمة واسمع اليه يقول بعد فشل المنشقين فى المفاوضات الرسمية . (تلك عبرة الدهر التي يجب أن يعتبر بها أولادنا وأحفادنا من بعدنا فلنقرأوا يا أبناء الاجيال هذه الصفحة المجيدة من تاريخ حياتنا لتعلموا أن رجلا واحدا من أبناء أمتكم تمسك بالحق فاستطاع أن يثبت أمام أقوي قوة فى العالم . وأن نبات قلة أنفذ

مصر من أعظم نكبة كان يدخرها لها الدهر في طيات تصاريفه ، ولتحنوا رءوسكم أمام هذه الذكري المجيدة اجلالا لها واعظاما لشأنها ولتجعلوها مثلكم الاعلى فى مستقبل حياتكم وعبرتكم البليغة التى تغنيكم عن جميع العظات والعبر) .

خاتمة فى وفاته

هـذه روح المنفلوطى تتكلم . وماكان أحوجنا الى استماعها طوال الايام . ولكن شاءت المنية أن تحرمنا هـذا القلب الانسانى الرحيم . فقدناه فى الثانى عشر من يوليه سنة ١٩٢٤ . وهو بعد لم يكمل الخمسين . في اليوم الرهيب الذي اجترأ فيه وغد لئيم . فصوب سهمه الى (سعد) قلب مصر الخفاق . وكأنى بذلك الكاتب الكريم . وقد عجز عن احتمال هذا الخطب ينزل بمن أحبه ودافع عنه حرا ومنفيا . لانه كان يرى فيه للقضية المصرية روحا خالصا قدسيا

نعم مات فى يوم عاصف من صور كتابته . وما كان أحد أشد منه إيمانا بالموت . وخضوعا للقضاء . وهاهو يقول يوم بلغ (الاربعين) (ما أنا بآسف على الموت يوم يأتينى فالموت غاية كل حى ولكنى أرى أمامي . عالما مجهولا . لا أعلم ما يكون حظى منه . وأترك ورائى . أطفالا صغارا لا أعلم كيف يعيشون من بعدي . ولولا ما أمامى ومن ورائى ما باليت أسقطت على الموت أم سقط الموت علي . . . ليكن ما أراده الله . أما ماأمامى . فالله يعلم أنى ما ألممت فى حياتى بمعصية . الاوترددت فيها قبل الالمام بها . ثم ندمت عليها بعد وقوعها . ولا شككت يوما من

الايام .في آيات الله وكتبه ولا في ملائكته ورسله ولا في قضائه وقدره ولا أذعنت لسلطان غير سلطانه ولا لعظمة غير عظمته . وما أحسب أنه يحاسبني حسابا عسيرا على مافرطت في جنبه بعد ذلك . وأما من ورائي . فالله الذي يتولى السائمه في مرتعها . والقطاة في أفحوصها . والعصفور في عشه . والفرخ في وكره . سيتولى هؤلاء الاطفال المساكين وسيبسط عليهم ظل رحمته واحسانه)

وليس في استطاعتي أن أصف الألم الذي ساد القلوب لموت هذا الكاتب الانساني الكبير وان كانت ظواهره (وهي الدموع) ظلت محتبسه في مكانها من العيون لان الحادث الذي قارف ذلك الموت المفاجئ كان قويا مروعا ترك الناس في حيرتهم ذاهلين . وهذا (شوقي) يصف ذلك اذ يقول:

اخترت يوم الهول يوم وداع ونعاك في عصف الرياح الناعي
هتف النعاة ضحي فأوصد دونهم جرح الرئيس منافذ الاسماع
من مات في هول القيامة لم يجد قدما تشيع أو حفاوة ساع

ولقد أكبر (سعد) موته فبكاه . وأرسل سكرتيره في تعزية أهله . وبعد ذلك وفد فيه حمد الباسل باشا . والمرحوم عاطف بركات باشا . وهاهو حافظ يحدثنا عن موته اذ يقول:

مت والناس عن مصابك في شغل بجرح الرئيس حامي الحماة
شغلوا عن أديبهم بنجيهم فلم يسمعوا نداء النعاة
وأفاقوا بعد النجاة فألفوا منزل الفضل مقفر العرصات
قد بكاك الرئيس وهو جريح وبكاء الرئيس كالرحمات